المحاضرة السادسة: القصة الأسطورية

تعد الأسطورة سجل المسارات الحضارية التي مرت على الإنسان في مختلف الأزمنة والأمكنة، فهي قديمة قدم الإنسان نفسه، وأحد أقدم المصادر لجميع معارفه، فما مفهومها؟ وما غاياتها؟ وما أهم أشكالها؟

1\_ مفهوم الأسطورة:

أ\_ لغة: لقد كانت الأسطورة مصطلحا متداولا عند العرب كما عند الغرب، وفي لسان العرب نجد ابن منظور يقول أن« السَّطْرُ والسَّطَرُ: الصف من الكتاب والشجر والنخيل... والجمع من كل ذلك أَسْطُرٌ وأسْطَارٌ وأسَاطِيرٌ...وقال الزجاج في قوله تعالى" وقالوا أساطير الأوّلين(خبر لابتداء محذوف)، معناه سطّره الأولون، وواحد الأساطير أسطورة كما قالوا أحدوثة وأحاديث...والأساطير: الأباطيل، والأساطير: أحاديث لا نظام لها واحدتها إسْطَارٌ وإسْطَارة بالكسر... وأسْطُورٌ وأسْطُورة بالضم» .

أما في معجم تاج العروس نجد« أُسطورة وأُسطِيرٌ وأُسطيرةٌ إلى العشرة، يقال سَطر، ويجمع إلى العشرة أسْطَارًا، ثم أساطير جمع الجمع، وقيل: أساطير، جمع سَطْرٍ على غير قياس وسَطَرَ تَسْطيرًا: ألّف الأكاذيب، سَطَر علينا: أتانا، وفي الأساس: قصّ، سطر فلان علينا إذا جاء بأحاديث تشبه الباطل، يقال: هو يُسْطِرُ ما لا أصل له، أي يؤلّف» .

بالنظر إلى التعريفات المعجمية، يتبن لنا أن مادة ( س، ط، ر) عند العرب لها العديد من الدلالات وأهمها النظام والثبات في عملية التسطير والتأليف، المرتكز على الخيال وتنميق الكلام وزخرفته، فيصبح حينها مسموحا اختلاط الحقيقة بالباطل، ومنه تصبح الأساطير مرادفا للأباطيل.

كما ورد في قاموس لاروس أن« الأسطورة Le mythe مشتق من الكلمة الإغريقيةMythos أو الكلمة اللاتينية Mythus والتي كانت تعني عند القدماء حكاية شعبية أو خرافية أنتجتها التصورات الإنسانية، وتداولتها للإجابة عن تساؤلات طرحها على نفسه، نتيجة تفاعله مع ظواهر الكون أو الطبيعة قصد تنظيم حياته» ، فالأسطورة إذن تعني الحكاية الخرافية أو البعيدة عن الحقيقة.

2\_ مفهوم الأسطورة اصطلاحا:

تعتبر الأسطورة مصطلح غامض، فهو متعدد الدلالات، ومتغير باختلاف التخصصات، فالعلوم باختلاف توجهاتها تستثمره وتوظفه، ومن هنا أصبح ضبطه والإمساك به أمر صعب، بحيث ترى الباحثة " نبيلة إبراهيم أن الأسطورة « كانت تعني الكلمة المنطوقة، ثم تحدد استعمالها فأصبحت تعني الحكاية التي تختص بالآلهة وأفعالهم ومغامراتهم، ولم يكن الإنسان البدائي يتساءل عن وجود الآلهة في حد ذاته، ولكنه تساءل عنها بوصفها المصدر الأول للظواهر الكونية والمنظم لها، فهو حينما تساءل عن مصدر المطر والبرق والرعد والنبات إلى غير ذلك، كان لابد له أن يربط وجود هذه الأشياء بالقوى الغيبية التي آمن بسيطرتها عليها» ، فالإنسان هنا جعل الأسطورة وسيلة يضفي بها على تجاربه الطابع الفكري.

فيما جاء في قاموس الأنثروبولوجيا أن الأسطورة« قصة تقليدية من عالم غير موجود( متخيل) وزمن غير معروف، ولمؤلف مجهول، أبطالها خياليون، وهم رجال وحيوانات وآلهة وأرواح ومخلوقات فوق طبيعية، وتفسر الأسطورة نشأة ومعاني المعتقدات والأعراف والظواهر الطبيعية، أو أية حقائق أخرى يعجز أفراد المجتمع عن تفسيرها، والموضوعات الرئيسية التي تتناولها الأسطورة هي خلق الكون والإنسان والموت وكيفية حصول الشعب على الموطن الذي يسكنه، وما يشبه ذلك» ، فالأسطورة مرتبطة بعالم وشخصيات خيالية غريبة عن العالم الواقعي ولكنها تعمل على تفسير كل ما يحدث ويحيط به.

ويعتبرها الدارس" خليل أحمد خليل" أنها « حكاية من كائنات تتجاوز تصورات العقل الموضوعي» ، وفي هذا الإطار نود أن نستحضر رأي الباحث في مجال الأسطورة وصاحب البحوث الكثيرة في ذلك" فراس السواح"، فهو يشير إلى إهمال الدارسين الأوائل وضع تعاريف واضحة للأسطورة، فهي مصطلح غامض لليوم ومتداخل مع أجناس أخرى بقوله « إن الأسطورة هي حكاية تقليدية تلعب الكائنات الماورائية أدوارها الرئيسية، غير أن التقدم في مسيرة البحث سوف يطلعنا على العديد من الأجناس الأدبية التي ينطبق عليها هذا التعريف والتي نستبعدها من دائرة الأسطورة تدريجيا، وذلك لعدم صلتها بها رغم مشابهتها لها من حيث الشكل، فنتعرف على الخرافة وعلى القصص البطولي وعلى الحكاية الشعبية وغيرها، وجميعها مما يشترك إلى هذه الدرجة أو تلك بالتعريف الذي أوردناه» ، وهو الأمر الصحيح حيث تختلط مثل هذه الأجناس كونها تشترك في خصائص جوهرية، والتعرف على خصائص الأسطورة هو ما يساهم في توضيح الفروق بينها وبين غيرها من الأجناس الأخرى.

3\_ خصائص الأسطورة:

لقد حاول الباحث "فراس السواح" أن يجمل لنا خصائص الأسطورة وعدّدها في النقاط الآتية:

1\_ من حيث الشكل الأسطورة هي شكل من أشكال الأدب الرفيع، فهي قصة تحكمها قواعد السرد القصصي من حبكة وعقدة وشخصيات وما إليها، وفي الثقافات العليا جرت العادة أن يصاغ النص الأسطوري في قالب شعري، يساعد ترتيله وتداوله شفاهة بين الأفراد وعبر الأجيال.

2\_ هي قصة تقليدية، بمعنى أنها تحافظ على ثبات نسبي، وتتناقلها الأجيال بنصها عبر فترة طويلة من الزمن.

3\_ليس للأسطورة زمن، أي أنها لا تقص عن حدث جرى في الماضي وانتهى، بل عن حدث ذي حضور دائم.

4\_ تتميز موضوعاتها بالجدية والشمولية، فهي تدور حول المسائل الكبرى التي ألحت دوما على عقل الإنسان مثل الخلق والتكوين وأصول الأشياء والموت والعالم الآخر...الخ.

5\_ لا يعرف للأسطورة مؤلف معين، لأنها ليست نتاج خيال فردي أو حكمة شخص بعينه، بل إنها ظاهرة جمعية تعبر عن تأملات الجماعة وحكمتها وخلاصة ثقافتها، ولا يمنع هذا الطابع الجمعي أن يقوم الأفراد بإعادة صياغة الحكايات الأسطورية وفق صنعة أدبية تتماشى وروح عصرهم.

6\_ تتمتع الأسطورة بقدسية وبسلطة عظيمة على عقول الناس ونفوسهم، وسطوتها التي تمتعت بها في الماضي لا يدانيها سوى سطوة العلم في العصر الحديث.

7\_ ترتبط الأسطورة بنظام ديني معين، وتتشابك مع معتقدات ذلك النظام وطقوسه المؤسسة، وهي تفقد كل مقوماتها كأسطورة إذا انهار النظام الذي تنتمي إليه، وتتحول إلى حكاية دنيوية تنتمي إلى نوع آخر من الأنواع الأدبية الشبيهة بالأسطورة مثل الحكاية الخرافية والقصة البطولية، وقد تنحل بعض عناصرها في الحكاية الشعبية».

لذلك فإنه كثيرا ما تلتبس الأسطورة بالخرافة في الاستعمال العامي، وقد يستعملان كمرادفين وذلك أنهما يشتركان في التعبير على اللامعقول، وتفرق بينهما الباحثة نبيلة إبراهيم بقولها« الخرافة والأسطورة يحققان في الغالب هدفا واحدا هو إعادة النظام إلى الحياة، غير أن الأسطورة تتميز بسلوك روحاني يختلف عن الخرافة»

4\_ تشكّل الأسطورة:

تعد الأسطورة محاولة لفهم ظواهر الكون المتعددة، أو بالأحرى محاولة تفسيرية له« إنها وليد الخيال ولكنها لا تخلو من منطق معين، ومن فلسفة أولية تطور عنها العلم والفلسفة فيما بعد، وعلى هذا فإن الأسطورة الكونية شأنها شان الفلسفة، تتكون في أولى مراحلها عن طريق التأمل في ظواهر الكون المتعددة، والتأمل ينجم عنه التعجب، كما أن التعجب ينجم عنه التساؤل، فإذا تساءل الإنسان طلب الإجابة في إصرار عن سؤاله، حتى إذا وجد الجواب قرت نفسه، لأن الإجابة حينئذ تكون حاسمة بالنسبة إليه، وهو يرتبط بها كل الارتباط، فإذا تمثل الكون للإنسان بهذه الوسيلة عن طريق السؤال والجواب، فإنه بذلك يتكون شكل نسميه الأسطورة الكونية» ، فالأسطورة كانت الأداة التفسيرية التي تزيل علامات الاستفهام لتي تعترض البشر المتأملون في ظواهر الكون.

ومفهوم هذه اللفظةMythos كما تفسره نبيلة إبراهيم« عند الإغريق القدماء، كانت تعني الكلمة المنطوقة، ثم تحدد استعمالها بعد ذلك، فأصبحت تعني الحكاية التي تختص بالآلهة وافعالهم ومغامراتهم، ولم يكن الإنسان البدائي يتساءل عن وجود الآلهة في حد ذاته، ولكنه تساءل عنها بوصفها المصدر الأول للظواهر الكونية والمنظم لها، فهو حينما تساءل عن مصدر المطر والبرق والرعد والنبات إلى غير ذلك، كان لابد له من أن يربط وجود هذه الأشياء بالقوى الغيبية التي آمن بسيطرتها عليها، ولقد رأى الإنسان البدائي لهذا السبب أن يكون في صلح دائم مع الآلهة، وأن يكون على صلة وثيقة بها، ليكسب ودها عن طريق العبادة والتبجيل والتضحية، ومن هنا نشأت الطقوس الدينية التي كان يحييها الإنسان في مواسم معينة قبل استقبال موسم الحصاد أو نزول المطر، أو تجنبا لقوع شر...الخ، والأسطورة بمعناها المحدد وصف لهذه الطقوس، أو هي الحكاية التي ترتبط بها» .

والأسطورة من جانب آخر كما تضيف الباحثة نبيلة إبراهيم هي عبارة على« عملية إخراج لدوافع داخلية في شكل موضوعي، والغرض من ذلك حماية الإنسان من دوافع الخوف والقلق الداخلي، فالإنسان مثلا يخشى الظلام ويحب ضوء الشمس الساطع، ولذلك فهو يقدس الشمس ويعدها آلهة، في حين أنه يعد الظلام كائنا شريرا، ولهذا يتحتم على الشمس أن تتصارع مع الكائن الشرير حتى تقضي عليه حماية للإنسان، ومن هنا كانت رحلة الشمس الدائبة، فهي تطلع حينما تنتصر على الكائن الشرير، وهي تغيب حينما يظهر مرة أخرى لكي يصارعها» ، فالأسطورة هنا تشبع حاجة الإنسان في معرفة أسرار الظواهر التي تعد مبعثا للتساؤل والقلق، فهو يبتكرها لتتولى عملية الإجابة عن الحيرة تجاه ظاهرة ما.

5\_ أنواع الأسطورة: للأسطورة في الآداب العالمية أنواع عديدة سنذكر منها هذه الأشكال:

أ\_ الأسطورة الكونية:

لقد عبر الإنسان عن تصوره لمختلف الظواهر الكونية، وكانت الأساطير وسيلته في تفسيره للظواهر التي تجذبه عندما يتأملها، وما وضعه الإنسان البدائي من تعليل في شكل أسطورة هو الحقيقة التي أحس بها حينذاك،« فالأسطورة الكونية\_ شأنها شأن الفلسفة تتكون في أولى مراحلها عن طريق التأمل في ظواهر الكون المتعددة، والتأمل ينجم عنه التعجب كما أن التعجب ينجم عنه التساؤل، فإذا تساءل الإنسان طلب الإجابة في إصرار عن سؤاله حتى إذا استطاع أن يجيب عن سؤاله قرّت نفسه، لأن الإجابة حينئذ تكون حاسمة بالنسبة إليه» ، وتمثل الكون للإنسان عن طريق السؤال والجواب يشكل له مثل هذه الأسطورة الكونية.

ب\_ الأسطورة الطقوسية:

اشتقاقها آت من الطقوس، لذا فلابد أن تعريفها مقرون بها، وفي هذا الإطار تعرفها الدارسة نبيلة إبراهيم فتقول:« إذا كانت الطقوس تختص بالأفعال التي من شأنها أن تحفظ للمجتمع رخاءه ضد القوى المتعددة المهولة التي تحيط بالإنسان، فإن الأسطورة الطقوسية Ritual Myth. تمثل الجانب الكلامي لهذه الطقوس، ولم تكن الأسطورة تحكى من أجل التسلية، ولكنها كانت أقوالا تمتلك قوى سحرية، بحيث أنها تسترجع الموقف الذي تصفه» ومن هنا كان أمرا مناسبا تسميتها بالأسطورة الطقوسية.

ولقد انشغل الإنسان البدائي بعدة ظواهر كونية أرّقته، ومن أهمها ظاهرة الخصب والجدب، فلطالما تعاقبا على حياة الإنسانية التي تعايشت مع تقلباتهما، وحكى الإنسان حينها مثل هذه المعايشة، مجسدا تعاقبهما ( الخصب والجدب) بالصراع بين إلهي الخير والشر.

ج\_ الأسطورة التعليلية:

في مفهومها تعني« محاولة لاصطناع أسلوب منطقي في تفسير الأشياء، في وقت غاب عنه الأسلوب العلمي لفهمها» ، إذ حينما تسترعي مظاهر معينة الإنسان فلا يجد لها التفسير المباشر، فهنا يخلق قصة أسطورية تعليلية لها.

د\_ الأسطورة الرمزية:

هذا النوع من الأساطير تلك التي« تتضمن رموزا تتطلب التفسير» ، ومثل هذه الأساطير ألّفت في مرحلة يبدو فيها الإنسان أكثر وعيا بالشخوص الأسطورية من مراحل سابقة، إذ يوظفها إلى حد ما توظيفا رمزيا.

ه\_ أسطورة البطل المؤله:

وتتمثل في تلك الأساطير« التي تتناول مالا يجوز للبشر أن يدّعيه لنفسه، وما هو من حق الإله وليس من حق الإنسان» ، حيث مهمة الإله أن يحافظ على توازن الكون وكل ظاهرة تجلب الخير، فيما مهمة البطل الذي يمزج بين الإنسان والإله أن يصل إلى مصاف الآلهة، ومثال ذلك أسطورة جلجامش التي تحاكي طموح هذا البطل ليعتلي مكانة الآلهة